بيرغيت زيكامپ Birgit Seekamp
المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت

بيروت في الأدب المعاصر

من الأسطرة الى تحطيم الأسطورة

إنّ الحرب اللبنانية التي دامت طويلاً (من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠) هي التي أضفتْ على صورة بيروت الأدبية صيغَتَها الأساسية في مؤلفات العديد من الكتاب العرب المعاصرين. فمدينة بيروت المدمَّرة تقدّم مشهداً نموذجياً عن أبعاد الضياع المكاني والروحي. وإنّ الأدبيّات التي تدور حول بيروت، بجانب تصوير الطوبوغرافيا الحضارية الملموسة لهذه المدينة، قد تمخضتْ عن خرائط ذهنية (mental maps[١])خاصة بالمدينة، وذلك انطلاقاً من العلاقات الخيالية التي تبنيها مع واقع عوالم المدينة الحياتية.

إنّ تخيُّل المدن أماكنَ رمزيةً، بل أسطوريةً، عملياتٌ أدبية قد يعود قِدَمُها الى بداية التحضر ومرحلة تأسيس تقاليد الحياة المدينية[٢]. على أنّ الصور الخيالية للمدينة ليست نسخاً أدبية مجرّدة عن العالم الخارجي، بل تميل على النقيض من ذلك الى أن تكون تجلياتٍ لأفكار تعبِّر عن تصوُّر مجتمعٍ بعينه، وعن حقبةٍ تاريخيةٍ محددة. وهكذا فإنّ من الممكن إدراك المدينة رمزاً ثقافياً مكانياً ينطوي على العديد من الأبعاد على صعيدي المعنى والوصف[٣]. ومن المؤكّد أنّ هذا الكلام يَصْدق على بيروت، إذ نتذكّر بعضَ الصور الشائعة عن هذه المدينة مثل قول البعض إنّها «باريس الشرق» أو إنّها «المدينة التي تمثّل أهوال الحرب الأهلية».

في هذه المقالة أريد أن أناقش الموضوعات التالية: أ ـ توظيف الأساطير في تمثيل بيروت الأدبي؛ ب ـ أسْطرة المدينة؛ ج ـ محاولات تحطيم الأبعاد الأسطورية لبيروت، وذلك في عدد من الأعمال الأدبية الصادرة حديثاً. وسأحاول أيضاً أن أعيد تلك الصور الأسطورية الى الإطار الأوسع لصورة المدينة في الأدب العربي، مع إلقاء الضوء على مدى أهميتها الأدبية.

إنّ أيّ مسعى لامتلاك فهم معاصر لمصطلح «الأسطورة» التي تعني أساساً «قصة» المخلوقات فوق البشرية[٤]، ولجملة العبارات المرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً مثل مصطلح «النمط البدئي» (archetype)، إنّما يضعنا على الفور في قلب نقاش نظريٍّ معقّدٍ ومتعددِ الجوانب. فإذا كانت الكمية الهائلة من الأبحاث العلمية في هذا الميدان قد بيَّنتْ بوضوح شيئاً واحداً، فهو أنّه تستحيل دراسة الأساطير في إطار منهجي وأسلوبي أُحاديّ الجانب[٥]. فعلى الرغم من ظهور العديد من المقاربات المتباينة في العقود الأخيرة، فإنّ النقاش المكثّف حول مسألة الأسطورة اكتسب عدداً من الرؤى العامة المؤهّلة لاختراق جوهر الأسطورة، وأعني بها على وجه الخصوص تلك الرؤى التي تقوم على الربط بين الأسطورة والأيديولوجيا. وإنه لإنجاز لا بدّ من أخذه بعين الاعتبار لدى تحليل البعد

١ ـ انظرْ كلاوس شيرپه (Klaus Scherpe) محرِّراً: **لواقعية المدن: تصوير المدن الكبرى بين الحداثة وما بعد الحداثة**، هامبورغ، ١٩٨٨، ص ٧ ـ ٨.

٢ ـ للاطلاع على البعد الرمزي للمدينة في الأدب، انظر كورد مكسپر (Cord Meckseper) وآخرين: **المدينة في الأدب**، غوتنغن ١٩٨٣، ص ٨٣

٣ ـ زيغريد فايغل(Sigrid Weigel):« الحُلم ـ المدينة ـ المرأة أنوثة المدن في الكتابة» في الكتاب المشار اليه في الهامش رقم ١، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

٤ ـ انظر التعريف في **موسوعة الدين**: (The Encyclopedia of Religion، رئيس التحرير: ميرسيا إلياد، المجلد العاشر، نيويورك، ماكميلان للنشر ١٩٨٧) ص ٢٦١ حيث يقال: «تأتي كلمة myth الإنجليزية من كلمة موثوس (muthos) اليونانية التي تعني «كلمة» أو «كلام»، والتي تكتسب أهميتها من كونها مناقضة لكلمة لوغوس (logos) صحيح أن هذه الأخيرة يمكن ترجمتها هي الأخرى بكلمة «كلمة» ولكن شرط ان تكون كلمةً تستدعي مناقشة و«محاجة». أما موثوس (muthos) التي تعني الأسطورة (myth) فهي الكلمة الدالة على قصة ذات علاقة بالآلهة وبالكائنات الفوقبشرية إنّ الأسطورة هي التعبير بالكلمات عمّا هو مقدس: فهي تتحدث عن أحداث ووقائع حصلتْ منذ نشوء العالم وبقيت ساريةً بوصفها أساساً وغاية لكلّ ما هو موجودٌ [اليَوْم]. وبالتالي فإن الأسطورة تضطلع بوظيفة النموذج والمثال بالنسبة إلى النشاط الإنساني، والمجتمع، والحكمة، والمعرفة».

٥ ـ انظر ميكايل روسنر (Michael Rössner)· **البحث عن الفردوس المفقود. عن الوعي الأسطوري في آداب القرن العشرين**، فرانكفورت ١٩٨٨، المقدمة: ص ٢٠ ـ ٢٣؛ ولمعرفة تطوّر مصطلح «الأسطورة» وتعريفاتها المختلفة انظرْ أيضاً مادة «ميثوس» (Mythos)، في **المعجم التاريخي للفلسفة**، تحرير يواكيم ريتر وكارلفريد غروندر، المجلد السادس، دار مشتات ١٩٨٤، ص ٣٠٠ ـ ٣١٧.

الأسطوري للكتابات الأدبية الدائرة حول بيروت.

ومع ظهور مدرسة «نقد الأسطورة» (Myth criticism) في الدراسات الأدبية الأمريكية في الخمسينيات، لم يعد مصطلح «الأسطورة» مقصوراً على جملة الوحدات السردية الأسطورية والموضوعات [الموتيفات] الأسطورية المتكررة المستمدة من الميثولوجيات القديمة[١]، بل بات يغطي كذلك عناصر نمطية بدئية (archetypes) على صعيدي الفعل والبنيان، تتميّز بلامحدوديتها الزمنية. وحسب رأي ك.ج. يونغ، فإنّ هذه العناصر متجذّرة في اللاوعي الجماعي، كما تشكّل جوهرَ المعنى لسائر الأساطير التي اجترحها الوعيُ البشريُّ[٢].

وثمة مساهمات هامة أخرى في النقاش حول الأسطورة تحققت بفضل كتابات فلسفية لعالمين يُعتبران من أكثر الفلاسفة المعاصرين نفوذاً وتأثيراً: وهما كلود ليفي شتراوس ورولان بارت. ففي إطار مقاربة الأوّل البنيويّة، تُعَرّفُ الأساطير بأنها منظومةُ رموزٍ مشفَّرة تمكّننا من معرفة الواقع وبنائه. صحيح أنّ الأساطيرَ تنبئ عن أحداث تعود إلى عصور سحيقة في القدم، ولكنها تشكّل في الوقت نفسه بنيةً دائمةً ذات علاقةٍ بالماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد[٣]؛ فالأساطير تمثل «أسلوباً من التفكير» يحاول التغلّب على التناقضات المؤْسية المزمنة التي يعاني منها المجتمعُ الإنساني (كالتناقض بين الحياة والموت)[٤]. وما من شيءٍ أشبه بنمط «التفكير الأسطوري» من الإيديولوجيا السياسية، جرّاء المعنى المزدوج الرئيسي للأسطورة بسبب بنيتها التاريخية واللاتاريخية في الوقت نفسه.

وأما رولان بارت فقد اعتبر الأساطير «أقوالاً مجردة من الصفة السياسية»[٥]. فبرأيه يَجري توظيفُ الأساطير من أجل قلب التاريخ والسيرورات التاريخية، كالمجتمع الرأسمالي وأيديولوجيته مثلاً، إلى أحداث طبيعية، إلى حقائق ثابتة غير قابلة للتغيير، إلى قضايا بدهيَّة. وهو يؤكّد، مثلُهُ في ذلك مثل ليفي شتراوس، على أنّ «الأسطورة لا تتحدد بالموضوع الذي تتناوله، بل بالمنهج والأسلوب اللذين تعتمدهما في التعبير عن هذا الموضوع»[٦]. وهكذا، فإنّ العلاقة بين الأسطورة والأيديولوجيا في هذه الكتابات الفلسفية المعاصرة واضحة جداً، إذ تقوم الأساطير بخدمة أغراض أيديولوجية في حين تفعل الأيديولوجيات فِعْلَها عن طريق الأسطورة وبمساعدتها.

المدينة في الأدب العربي: من الصورة المثالية إلى التصور الملتبس

عُرف الشرق الأدنى بمدنه منذ الأيام الأولى للتاريخ. وتمثّل الحضارةُ الإسلامية هذا النموذجَ المديني منذ بداياتها، إذ تطورت الثقافةُ الإسلاميةُ العربيةُ في بيئة عالية التمدّن في كلٍّ من دمشق وبغداد ومدن شرقية أخرى في العهدين الأموي والعباسي[٧]. ومن الجدير بالذكر أنّ التصوير المثالي والإطراء الكبير للمدن الإسلامية ظهرا أوّلَ الأمر في «أدب الفضائل»، وهو جنس أدبي كان يقوم على إبراز روعة الأشياء والأفراد والجماعات والأماكن بغرض المديح[٨]. وقد مرّت صورُ المدينة

١ ـ حول اتجاه النقد الأسطوري انظر: نورثروب فراي: **تشريح النقد**، برينستون ١٩٥٧، ص ١١٨، ١٤١؛ وانظرْ أيضاً روسنر: ص ٣٠ ـ ٣٣.

٢ ـ ك.ج. يونغ (C. G. Jung): «علاقات علم النفس التحليلي مع النص الأدبي» في: **الآثار الكاملة**، المجلد الخامس عشر، أولتن ١٩٧١، ص ٧٥ ـ ٩٦. أما جوزيف كامبل (Joseph Campbell) في دراسة له بعنوان **بطل بألف وجه** (نيويورك، ١٩٤٩) فقد تصور نمطاً بدئياً واحداً ـ هو خروج البطل الى البحث [عن مراده]، وانتصاره، ثم عودته الآمنة الى أهله ـ كأسطورة أساسية موحّدة لقصة جميع الأبطال تتكرر بأشكال متباينة بعضَ الشيء آلافَ المرات في تاريخ البشرية (١٣٨). وقد عاد هارولد فيش مؤخراً إلى تبنّي وجهة النظر هذه في كتاب **المستقبل المتذكَّر: دراسة في الميثولوجيا الأدبية** (بلومينغتون، منشورات جامعة انديانا، ١٩٨٦). ويقترح فيش عبارة «النمط البدئي التاريخي»، لأنّ صفةً جديدة من الملحاحية التاريخية تم إسباغها في العصور الحديثة على المضامين النمطية الخيالية التي قد تبدو أزلية وشاملة. ويمكن للأنماط البدئية أن تتعرض لنوع من التعديل البنيوي تحت ضغط الأزمات التاريخية، وهذا ما يجعلها تاريخية (انظر المقدمة، ص ١ ـ ١٩).

٣ ـ كلود ليفي شتراوس: **الانثروبولوجيا البنيوية** (باريس، مكتبة بلون، ١٩٥٨)، الترجمة الألمانية فرانكفورت ١٩٦٧؛ طبعة شعبية ١٩٩١، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

٤ ـ انظر **المعجم التاريخي للفلسفة**، (مصدر سابق)، الجزء السادس، ص ٣٠٤.

٥ ـ رولان بارت: **الميثولوجيات** (باريس ١٩٥٧). الترجمة الألمانية (Die Mythen des Alltags)، فرانكفورت، طبعة ثانية (خاصة) ١٩٩٦، ص ١٣٠ ـ ١٣٣.

٦ ـ المصدر السابق، ص ٨٥.

٧ ـ انظر ل. كارل براون (محرراً): **من المدينة الى الحاضرة [المتروبول]: الموروث والمتغير في مدينة الشرق الأدنى**، برينستون، منشورات داروين ١٩٧٣، المقدمة، ص ٢٧ ـ ٤٩. وكان الإسلام يفضل المستقرَّ وابنَ المدينة على البدويّ المتنقّل. فالبيئة البدوية المنعكسة أدبياً في موضوع «الأطلال» سرعان ما فقدت أهميتها بالنسبة إلى الشعراء العباسيين، إذ راحوا يمتدحون المدينة بوصفها مكاناً للبهجة والسعادة. وتبيِّن قصائد أبي نواس (٧٦٢ ـ ٨١٠) أنّ الفضائل البدوية الطاغية على الشعر العربي الكلاسيكي كانت قد أصبحت نوعاً من العرف بدلاً من أن تبقى تعبيراً حياً عن المثل الجماعية للثقافة الإسلامية. انظرْ غوستاف فون غرونباوم: **النقد وفن الشعر؛ دراسة في تاريخ الأدب العربي**، فيسبادن ١٩٥٥، ص ٥٣.

٨ ـ مادة «فضائل» في **الموسوعة الإسلامية**، الطبعة الثانية، المجلد الثاني، ص ٧٢٨ ـ ٧٢٩. وقد شيدت فضائل المدينة على الآيات القرآنية وأحاديث النبيّ والصحابة، وكانت فضائل المدن بأكثريتها كتباً وصفية ذات أغراض إقليمية أو سياسية.

في أدب «الفضائل» بعملية تنميط (stereotyping) صارت بموجبها تفاصيلُ وفضائلُ مميِّزةٌ لمدينةٍ بعينها غيرَ ذات شأنٍ ويمكن إضفاؤها على مدن أخرى[١]. وهكذا دخلتْ هذه الصورُ والرواسم [الكليشيهات] بسرعة في الإطار الأوسع للنثر والشعر العربيين الكلاسيكيين. فبغداد، مثلاً، وُصفتْ بـ «أم الدنيا» و«سيدة الأرض»[٢]. وبلغت عمليةُ أَمْثَلَةِ المدينة (city-idealization) حدَّ تصوير العديد من المدن العربية الشهيرة على أنها «فراديس على الأرض». وعلى العموم فإنّ «المدينة ـ الفردوس» كانت مؤلفة من بعض الأنماط الأولية القابلة للتكرار والمستندة في الدرجة الأولى إلى الصور البيانية الواردة في القرآن[٣].

وعلى الرغم من أنّ المواقف الانتقادية من المدينة كانت هي الأخرى شائعةً في الكتابات الأدبية الكلاسيكية، فإنّ التقدير العالي للمدينة لم يتقلَّصْ على الإطلاق[٤]. ويعود هذا الأمر الى أنّ المدينة اعتُبرت إنجازاً بارزاً من إنجازات الحضارة التي تأسستْ نتيجةً لتفوُّق مرتكزاتها على الحياة الريفية (والبدوية خصوصاً). ولم يتمخض نقدُ الحياة المدينية في تلك الكتابات عن رفض «النموذج الحَضَريّ» أو عن أيّ تبجيل بديل للريف، وما لبثت المدينة أن أصبحت في الخيال الأدبي مكاناً ذا صفة نمطية بدئية، وفسحةً مؤهلة لتلبية رغبات الإنسان أيضاً.

ومع حلول العقود الأولى من القرن العشرين أسفرت عملياتُ التمدين المتزايدة وتطورُ الطبقة الوسطى على نطاق واسع، عن انقلاب رئيسي في الصورة الأدبية للمدينة. ففيما كان الشاعر الكلاسيكي ـ الجديد أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) ما يزال قادراً على تخيُّلِ مسقط رأسه القاهرة فردوساً على الأرض اتّباعاً للتقليد العباسي القائم على إطراء المدن[٥]، فإنّ صوراً سلبية عن المدينة وردتْ للمرة الأولى في كتابات الرومانسيين المتأثرين بالأعمال الأدبية الأوروبية. فقام جبران خليل جبران مثلاً بتصوير المدينة بؤرةً للحضارة الفاسدة والحرمان، جاعلاً منها نقيضاً للريف الذي يتجلى رمزاً للبراءة والتناغم والمساواة[٦].

ومن الخمسينيات برزت صورٌ جديدة عن المدينة في شعر الجيل الصاعد («حركة الشعر الحر») المتأثر بالكتابات الاشتراكية والوجودية على حد سواء. وقد تشكلت صورة المدينة لدى هؤلاء الشباب في المقام الأول تحت تأثير قصيدة «الأرض اليباب» (Waste Land) للشاعر البريطاني [الأميركي المولد] ت. س. إيليوت، الذي كان انتقادُه للمشهد الحضري المدمَّر ورؤيتُهُ لـ «المدينة اللاواقعية» قد أصبحا آنذاك موضوعاً شائعاً في الأدب العربي الحديث. وكان الشاعران العراقيان عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب، والشاعر السوري ـ اللبناني أدونيس (علي أحمد سعيد)، والمصري صلاح عبد الصبور، قد ترعرعوا في الريف، وسرعان ما حُرِموا من آمالهم التي عقدوها على المدينة، ولم يجدوا فيها المكانَ الذي يؤمِّن لهم الحريةَ على الصعيدين الفكري والفردي. ومنذ اللحظة الأولى، صُعق هؤلاء الشعراء بما تعانيه هذه المدينة من فقدان هويةٍ ومن خواءٍ روحي، فضلاً عن سائر آيات الفقر والفساد وغياب الأمن العاطفي في زحمة العلاقات المدينية المتشابكة والمعقدة[٧]. ففي كتابات هؤلاء تتبدّى المدينةُ في الغالب مومساً[٨]، أو غولاً بلا وجه، أو مولوخاً (إلهَ حربٍ) يلتهم كلَّ مَنْ يصبح في متناول يده[٩]. وهذه الصور تعكس قدراً هائلاً من التوتر بين القيم الريفية والقيم المدينيّة. أضِفْ إلى ذلك أن هذه الصور تبيِّن أنّ تمثيل المدينة قد تعرض لانقلابٍ شبه

---

١ ـ انظر دراسة ايرنست أوغست غروبر: **الفضيلة والمرتبة؛ الفضائل قضيةً أدبيةً واجتماعيةً في الإسلام**، فرايبورغ ١٩٧٥، ص ٥٥ ـ ٨٣.

٢ ـ انظر أمثلة وردت في كتاب غرونباوم الآنف الذكر، ص ٥٢ ـ ٥٤.

٣ ـ المصدر السابق، ص ٥٤ ـ ٥٥ حيث تجري مناقشة تشبيه المدن العربية بالفردوس؛ ولعلّ تمجيد مدينة البصرة في **المقامة البصرية الحريرية** هو الأكثر إثارة.

٤ ـ غرونباوم، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧.

٥ ـ **الشوقيات**، القاهرة ١٩٣٠، المجلد الثاني، ص ١٢٨ وبعده: فالقاهرة «عين من الخلد»؛ ودمشق بغوطتها «جنة»؛ وشُبِّه نهر بردى بالملاك رضوان حاجبِ الجنة؛ للاستزادة انظر ش. مووه: **دراسات في النثر والشعر العربيين الحديثين**، لايدن ١٩٨٨، ص ١٣٧.

٦ ـ انظر قصيدة «المواكب» (١٩١٨) لجبران؛ مورة، **دراسات**، ص ١٤٠ ـ ١٤٢.

٧ ـ إحسان عباس: «الموقف من المدينة» (١١١ ـ ١٣٦) في: **اتجاهات الشعر العربي المعاصر**، الكويت، شباط ١٩٧٨، ص ١١٢.

٨ ـ تتجسد المدينة مجازياً في امرأة عاهرة في عدد من قصائد السياب مثل «المومس العمياء» (**أنشودة المطر**، بيروت ١٩٦٠، ص ١٩٧ ـ ٢٢٧) أو «حفّار القبور» (**ديوان بدر شاكر السياب**، بيروت ١٩٧١، ص ٥٤٣) حيث توصف بغداد بأنّها دارٌ كبيرة للدعارة؛ كذلك في بعض قصائد البياتي (انظر إ. عباس، **اتجاهات**، ص ١١٤ ـ ١١٥). ويمكن العثور على صور مماثلة في شعر أدونيس حيث يجري تصوير المدينة امرأةً شبقة ومومساً، فيما يبقى الشاعر ممزقاً بين حبه لهذه المدينة ـ المرأة وكرهه لها لأنّها ترفضه. وهو يعبر عن هذه العلاقة بصورة جنسية سلبية صريحة؛ راجع قصيدة «فصل الدمع» من **كتاب التحولات**، بيروت ١٩٦٥، ص ٤٥ ـ ٥٨.

٩ ـ ليست «المدينة» بنظر البياتي إلا «وحشاً ضَريرٌ/ صرعاهُ موتانا، وأجسادُ النساءْ/ والحالمونَ الطيبونْ» (**أباريق مهشمة**، بيروت ١٩٥٥، ص ٣٥ ـ ٣٦)؛ انظر أيضاً شجب المدينة الرأسمالية الصناعية الحديثة والفاسدة في قصائد أدونيس مثل قصيدة «المدينة» الواردة في ديوان **أغاني مهيار الدمشقي**، بيروت ١٩٦١، ص ١٤١.

كامل: فتحوّل من الصورة المثالية الكلاسيكية إلى صورةٍ لبيئة معاديةٍ مفعمة بالتهديد والخطر.

وفي هذه الرؤى الأدبية باتت العواصمُ العربية أماكنَ بشعةً ومدمِّرةً وفاسدة. ولطالما اعتُبِرتْ تجسيداتٍ مكانيةً للحضارة الغربية الحديثة بجوانبها السلبية خصوصاً: برأسماليتها المستغِلّة، وبقيمها الأخلاقية المنحطّة، وبما تحمله لسكان المدن من الاغتراب والعزلة. كذلك دأب الشعراء الملتزمون، اليساريون في الأغلب، على تحويل المدينة إلى مجاز سياسي، إلى مرآة تعكس مزاجهم النفسي وموقِفَهُمْ من النظام السياسي في بلدانهم ومن الصراعات الراهنة فيها. ونستطيع أن نلاحظ في أشكال تصويرهم للمدينة قدراً متزايداً من انقشاع الوهم إزاء العقائد والدوغمات القومية والاشتراكية والثورية في العالم العربي[1]. لقد فقدت المدينةُ والريف كلاهما، في عُرْفِ جيل الشباب من الشعراء العرب المحدثين، السماتِ المميِّزةَ لأيّ مكان مثالي جدير بالعيش أو لأية فسحة مرجوة: فالأولى (المدينة) ذهبتْ ضحيةَ عمليات التصنيع والتحديث، والثاني (الريف) بات هدفاً للهجوم جرّاءَ تخلّفه وفقره ومؤسساته الإقطاعية[2]. ولقد سدّت هذه الصور الانتقادية والملتبسة للمدينة الطريقَ أمام أية عودة حقيقية الى صورة «المدينة ـ الفردوس» في الكتابات العربية المعاصرة.

بيروت ـ المرأة: صورة المدينة والأساطير الجنُوسيّة (gender-myths)*

تؤدي الصور النسوية دوراً بارزاً في رسم المدن في الأدب العربي الحديث. فصفة الأنوثة تؤمِّن للمدينة خزّاناً من الصور والاستعارات. وعملية التحويل المجازي للمدينة الى امرأة تشكل عاملاً ثابتاً في الكتابة عن بيروت: إذ تُقدِّمُ المدينةُ عشيقةً، وتُعطى جملةً من الصور الملتبسة؛ فهي امرأة تتأرجح ين الحب والكراهية، وبين الشبق والرفض. وكذلك نعثر على تجسيد بيروت امرأةً فاتنة مغوية (femme fatale) ومومساً. ولعلّ واحداً من العناصر الأكثر إثارة في جملة هذه الصور المجازية هو قدرة المرأة على الإغواء[3].

ليس تخيُّل المدن نساءً بأمر ممكنٍ إلا في إطار وجهةِ نظرٍ ذكوريّة، حيث يَظْهَر الرجلُ الفاعلُ على مسرح المدينة مخطِّطاً، وفاتحاً، ومتسكِّعاً، ومؤلِّفاً، عاكساً بذلك صورةَ المدينة وكأنّها خالية من أيِّ مواطِناتٍ نساءٍ حقيقيات. ومنذ أن وردتْ «مومسُ بابل» في الإنجيل صار من الممكن تعقُّبُ أصداءِ هذا التشبيه، والمماهاةُ بين المدينة والمرأة في الأدب بصورة مستمرة. وربما كانت هذه الأصداء قديمةً قِدَمَ الأساطير التأسيسية اليونانية الأولى، حيث كان تصويرُ المدينة مستنداً إلى خرافات وأساطير جُنوسيّة معينة تقسم الأنثى الى قسمين: قسم شرير «متوحش» خارجَ المدينة، وآخرَ جيّدٍ «مدجَّن» (متمثِّلٍ بالزوجة والأم) داخل المدينة[4].

وفي المدن الحديثة المتنامية بسرعة، عادت تلك العناصرُ «المتوحشة» من الأنثى إلى داخل المدينة من جديد، بل راحت تفرض سيادةً واضحةً عليها الآن. فهذه المدن الحديثة تفتقر إلى دلائل النظام والأمن التي كانت تميِّز البلداتِ في الأزمان الكلاسيكية والعصور الوسطى. وإذ فقدت المدينة قوةَ السيطرة، فإنّها استعادت في الوقت نفسه بُعْدَها الجسدي. وهذه المدينة الحديثة نفسُها تتعرض الآن لنوع من التقسيم إلى عدد من الساحات والأحياء المنظمة والسائبة، النظيفة والملوثة، الفاضلة والشريرة. وصار بالإمكان أن ترتبط في الأذهان صورةٌ معينة من صور المرأة بكل ساحة من تلك الساحات والأماكن المذكورة، أو صار بالإمكان تصوُّر المدينةِ كلِّها جسداً لأنثى. وتتميّز المدن الحديثة بسحرها الخاص وفتنتها؛ فهي تَعِدُ بإشباع رغبات محدّدة، وإنْ كان ذلك الوعدُ مرتبطاً بخوف المرء من الضياع في متاهات تلك المدن. إنّ عملية تشبيه المرأة بالمدينة الحديثة، والمماهاةِ بينهما، إنما تقوم على مستوى الجسد الأنثوي وتقويمه تقويماً ذا حدين: فهذا الجسد هو نقطةُ تلاشي الشوق، وهو نقطةُ تلاشي الخوف في الوقت نفسه[5].

---

١ ـ انظر إ. عباس: **اتجاهات**، ص ١٢٧ ـ ١٢٨؛ انظر أيضاً موره: **دراسات**، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

٢ ـ وقد عبَّر جل الشعراء الملتزمين عن مواقف انتقادية من الظروف المعيشية في الريف، انظر موره: **دراسات**، ص ١٤٧، ١٥١

* ـ آثَرَ قلمُ التحرير إحلالَ «الجُنُوسيّة» مكان الكلمة التي اقترحها المعرِّب وهي «الجنسيّة»، وذلك للتمييز بين gender و sexual. والجدير ذكره أنّ كمال أبو ديب هو الذي اشتقّ «الجُنُوسة» (قياساً على «أنوثة» و «ذُكورة»..) في تعريبه لكتاب ادوارد سعيد: **الثقافة والامبريالية**.

٣ ـ تطغى جدليةُ المدينة ـ المرأة المغوية هذه على العديد من الصور المدينية في الأدب العربي الحديث؛ انظر موره: **دراسات**، ص ١٥٤، عباس: **اتجاهات**، ص ١١٤ ـ ١١٥. وعلينا أن نتذكر هنا أنّ جل الآثار الأدبية التي نعاينها في هذه الدراسة كتبها مؤلفون ذكور.

٤ ـ زيغريد فايغل، «أنوثة المدن المتخيلة» في كتاب **أسطورة المدينة الكبرى**، فرانكفورت ١٩٩٥، ص ٣٥ ـ ٤٦. والوجه المتوحش الشيطاني للمرأة يظهر في صور بيانية مثل التنين والعُدار والكمِّير. ويستعرض البطل الذَّكَر في صراعه مع هذه الرموز الشريرة آياتِ بطولته، ومهمته هي السيطرة على فوضى الطبيعة غير المدجنة. أما المرأة في داخل النظام الجديد، أي: المدينة، فتتم حمايتها بفضل الأسوار المدينية الضامنة للأمن بعد حرمانها من بعدها الشهواني؛ فنحن نجدها مخلوقاً بلا جنس، أسيرةً خلف جدران المقصورات الخاصة، وتبقى رحمها محجوبةً عن أعين الجمهور (ص ٣٦ ـ ٣٩).

٥ ـ فايغل، **أنوثة المدن المتخيلة**، ص ٤٠ ـ ٤١.